يوم كان العارمل ايدينا !..

بقلم سيمون دوبوفوار
ترجمة : عايدة مطرجي ادريس

يصدر في الشهر القادم عن « دار الاداب » الجزء الثاني من مذكرات سيمون دوبوفوار بعنوان « قوة الاشياء » . ويسر الاداب ان تنشر فيما يلي فصلا هاما من فصول الكتاب تتناول فيه الاديبة الفرنسية الكبيرة وصف الجو العام الذي عاشته مع جان بول سارتر والمفكرين الفرنسيين الاحرار يوم كانت قضية الجزائر وثورتها تتأرجح في الضمير الفرنسي .

**

لم ادع حرب الجزائر تكتسح فكري وليلي ومزاجي عن رضى ولا عن جذل . فلم يكن ثمة من هو اكثر ميلا مني لاتباع نصيحة كامو : ان يدافع المرء ، بالرغم من كل شيء ، عن سعادته الخاصة . كانت قد وقعت كوارث الهند الصينية ومدغشقر ورأس بون والدار البيضاء . وكنت استطيع دائما ان استرد الهدوء والصفاء . ولكن هذا الصفاء انهار بعد أسر بن بللا وغزو السويس : ان الحكومة معاندة في المضي في هذه الحرب . صحيح ان الجزائر ستحصل على استقلالها : ولكن بعد وقت طويل . وفي تلك اللحظة التي لم اكن المح فيها نهاية حقيقة « اشاعة السلام » ، انكشفت تلك الحقيقة تماما . ذلك ان مجندين قد تكلموا ، وتدفقت المعلومات : محادثات ، رسائل موجهة لي ، والى اصدقاء ، ريبورتاجات اجنبية ، تقارير سرية كانت بعض الجماعات تذيعها . لم نكن نعرف كل شيء ، ولكننا كنا نعرف كثيرا ، بل اكثر مما ينبغي . ومن جراءذلك ، انقلب وضعي الخاص في بلدي وفي العالم وفي علاقاتي بذاتي .

انني امرأة فكر ، وانا اقيم وزنا للكلام وللحقيقة . ولقد حدث اني تعرضت في كل يوم لهجوم الاكاذيب التي تبصقها جميع الافواه ، وتكررها الى ما لا نهاية . كان بعض الجنرالية والكولونيلية يشرحون انهم انما كانوا يخوضون حربا شريفة ، وحتى ثورية : ان جيشهم كان يفكر ! ولكن المستوطنين كانوا يطالبون بالاندماج في حين ان مجرد فكرة انتخابات المقاطعة الواحدة كانت تجعلهم يقفزون في الهواء . وكانوا يؤكدون ان الشعب كان يحبهم باستثناء بعض المشاغبين . ومع ذلك ، فانهم في اثناء عملية التقتيل التي تبعت دفن « فورجيه » لم يقوموا بأي تمييز بين المسلمين « الطيبين » ، مسلميهم هم ، وسائر المسلمين : فلقد قتلوا جميع الذين كانوا يقعون في أيديهم . واما الصحافة ،فكانت قد اصبحت مشروع تزوير وتزييف . وقد افضت عن المجازر التي سببها « فيشوز » و « كاستيل » (١) ، ولكنها ارسلت صراخا عظيما احتجاجا على حوادث القتل التي فتحت معركةمدينة الجزائر . واغلق المظليون حي القصبة ، واوقف الارهاب : ولم يكشفوا لنا عن الوسائل التي استعملت لذلك . ولم تكن الصحف تخشى ان تصادر وتلاحق فحسب، وانما كانت تخشى ان تسيء الى مشاعر قرائها : فكانت تنشر ما كان هؤلاء يتمنون سماعه .

ذلك ان البلاد كانت توافق بجذل على هذه الحرب ، شريطة ان يزينوها لها ويغطوها بالمساحيق . ولم اكن لانفعل حين كان المتطرفون يتظاهرون في جادة الشانزليزيه ، كانوا يطالبون بان يمضي القتال حتى النهاية .. وان يعلق اليسار بالمشنقة ، وكانوا يحطمون فيطريقهم زجاج وكالة السياحة التي كانت مكاتب جريدة « الاكسبريس » تقوم فوقها . لقد كانوا متطرفين . ولكن ما صعقني هو ان الشوفينية(٢) قد كسبت الاغلبية العظمى من الفرنسيين ، وان اكتشف عمق شعورهم العنصري . وكان بوست ولانزمان ـ اللذان كانا قد سكنا غرفتي في شارع لابوشوردي ـ يرويان لي كيف كان رجال الشرطة يعاملون الجزائريين المقيمين في ذلك الحين : في كل يوم تفتيش ومصادرةواطلاق رصاص . وكانوا يضربونهم ، ويقلبون عربات الباعة منهم . ولم يكن ثمة من يحتج على هذه المعاملة ،بل كان الذين لم يكن الجزائريون قد لامسوهم بالاصبع سعداء بان يكونوا « محميين » وقد زاد انشداهي وحزني حين عرفت اللذة التي كان الجنود الشبان في جيش الاحتلال يطبقون بها طرق اعادة السلام .

لم اكن اميل الى تعذيب نفسي ، حتى ان اول حركة قمت بها حين وضع لانزمان بين يدي « مستند موللر » هي اني ابعدته عني.وانا اليوم ، في هذا الشهر الحزين من كانون الاول ١٩٦١ ، ككثيرين غيري مثلي كما افترض ، اشكو منوع من الكزاز في المخيلة . انني اقرأ تصريح « بودو » في محاكمة « ليندون » :

« لقد رأيت ذات مساء رجالا زرقا يأتون الى طاولتي : كانوا رجالا عباقرة قادمين من دفن اربعة رجال وهم احياء ، اربعة من جيشالتحرير كانت اعمارهم تتراوح بين العشرين والخامسة والستين . وكان اخرهم العجوز هو اخر من مات منهم . وقد قيل لي انه كان شديد الخوف... حتى ان عرق جسمه كان يصعد بخارا في الليل . كانوا يموتون تدريجيا تحت وطأة التراب الذي كانت الكاسحة تهيله عليهم . » وقرأت شهادة « لوليبيت » :

« كان هؤلاء الاسرى قد شنقوا من ارجلهم . وقد رأيتهم في الصباح ، وفي المساء كانوا ما يزالون معلقين . وكانت وجوههمسوداء برمتها ، وكانوا ما يزالون أحياء . واود ان اذكر كذلك استعمال التيار الكهربائي . وحين كان هذا التيار يبلغ اسفل البطن ، فآنذاك كان يصعد اقوى الصراخ . وكانوا يجيلون التيار ايضا في الفم » .

اقرأ هذا وانتقل الى مقال اخر . وربما كان هذا هو اصل خفض معنويات امة من الامم : ان الناس يعتادون .

ولكن في عام ١٩٥٧ ، كان العظم المحطم ، والحروق في الوجه ، وعلى العضو التناسلي ، والاظافر المنتزعة ، وايلاج الاوتاد في المؤخرة ، والتشنجات ـ ان ذلك كله كان يصيبني انا بالذات . كان موللر قد تحدث بصورة علنية عن تجربته حين كان ما يزال جنديا في الجزائر ، وقد كلفته هذه الجرأة حياته برصاصة جندي فرنسي اخر : وكان من الواجب ان يقرأ وان يعرف . ولكن كان لا بد لي من ان اقسر نفسي . وقد كان علي ان أتكبد قراءة وثائق اخرى من هذا القبيل . وكنا نتلقى كثيرا منها في « التان مودرن » فننشر وثيقة واحدة من كل عشر . وقد ظهر بعضها كذلك في مجلة « اسبري » . كانت هناك فرق برمتها تسطو

(١) سقط ضحية قنبلة البلاستيك التي وضعها فيشوز في حي القصبة في تموز ٥٣ قتيلا وعدد لا يحصى من الجرحى . ووضع كاستيل قنبلة اخرى يوم ٦ اب لم يكن عدد ضحاياها اقل .

(٢) التعصب الوطني المتطرف الى ابعد الحدود .(هـ م) .

وتسرق وتحرق وتنتهك الاعراض وتذبح الناس . وكان التعذيب مستعملا كوسيلة طبيعية واساسية لانتزاع المعلومات . ولم تكن المسألة عارضة ، او مسألة تجاوز معين ، بل كانت منهجا يتبع : ففي هذه الحرب التي ينتصب فيها شعب برمته ضدنا ، كان كل فرد مشبوها . ولن توقف الفظائع الا بوقف النار .

ولم يكن مواطني يريدون أن يعرفوا شيئا . ولكن الحقيقة رشحت، ابتداء من ربيع ٥٧ ، ولو انهم استقبلوها بالحماسة التي استقبلوا بها الكشف عن وجود معسكرات العمل السوفياتية لانفجرت في وضح النهار . ان مؤامرة الصمت لم تنجح الا لان الجميع كانوا ضالعين فيها. اما اولئك الذين كانوا يتكلمون ، فلم يكونوا يسمعون ، وكان الصياح يرتفع ليغطي اصواتهم ، واذا سمع احد بعض الشائعات ، بالرغم عنه ، فانه كان يعجل في تناسيها . وقد علقت جريدتا «لوموند» و «الاكسبرس» ، وهما ليستا صحيفتين سريتين ، على كتاب بيار ـ هنري سيمون : « التعذيب » الذي كان يقدم للجمهور وثيقة «موللر» . وتحدثت صحافة اليسار كلها عن مجموعة « مجندون يشهدون » التي كتب عنها سارتر في « التان مودرن » مقالا بعنوان : « انكم هائلون » . وقد كان مؤلفو هذه الوثائق ، في معظمهم ، كهنة لم يشترهم عبد الناصر طبعا ، ولا موسكو . والواقع ان احدا لم يتهمهم بالكذب : وانما سد الجميع اذانهم . ولم يكن سرفان ـ شرايبر الذي جند قبل ذلك ببضعة اشهر كملازم في الجزائر مشترى من قبل الجامعة العربية ولا من الاتحاد السوفياتي . وقد احدثت شهادته ، التي نشرت اولا في «الاكسبرس» ثم ظهرت في كتاب ، ضجة كبيرة حتى صدرت بحقه « مذكرة اخبار » : وبالرغم من احترامه للاشخاص القائمين وللتقاليد العسكرية ، وبالرغم من انه المتهم في نهم مخادعات « فرق الكوماندوس السود » ، فانه كان يروي جرائم كان من المفروض ان تؤثر في الرأي العام : من مثل قتل العرب بدافع اللذة ، والاجهاز على الاسرى بصورة وحشية ، واحراق قرى برمتها ، والقتل بصورة جماعية الخ. ولكن الرأي العام لم يتأثر.

وكان القتلة حاملو البازوكا يتنزهون في حرية . وكان ايفوتون قد وضع قنبلة في مصنع فارغ ، متخذا كل الاحتياطات لئلا يسبب القتل، وقد حكم بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم . فلماذا تضامن هذا الفرنسي مع الشعب الجزائري ؟ ولماذا كان اطباء ومحامون واساتذة وكهنة من مدينة الجزائر يساعدون جيش التحرير الوطني ؟ لقد كان يقال انهم خونة ، وقد اجابوا . واخبر الجمهور بـ « انتحار » العربي بن مهيدي الذي وجد مشنوقا على حديد شباكه ، وقد اوثقت يداه وقدماه. وبعد « انتحار » بومنجل ، الذي سجن وعذب على ايدي المظليين طوال بضعة اسابيع ثم القي من اعلى سطيحة ، اوقف « كابيتان » استاذ الحقوق في جامعة باريس دروسه احتجاجا : فكان لحركته اصداء صاخبة . ويوم ٢٩ اذار ، قام الجنرال دولابولاردير بحركة كان لها وقع الانفجار: فقد طلب ان يعفى من قيادته لانه كان يشجب طرق الجيش الفرنسي . اما قضية جميلة بو حيرد فقد عرفت في فرنسا كلها وفي الخارج. ولم يجهل الرأي العام الحملة التي شنها اليسار ضد التعذيب ، بدليل انها ازعجت الحكومة الى حد ان انشأت « لجنة للسلامة » لتحتمي خلفها .

وكنت قد اتهمت باني ضد فرنسا : واصبحت كذلك . لم اكن اطيق بعد مواطني . وحين كنت اتناول العشاء في المطعم مع لانزمان او سارتر ، كنا ننزوي في ركن . وكانت ضجة الاصوات تبلغنا مع ذلك . وكانت عبارة ما تلفظ بين تعليقات سيئة عن مرغريت او بريجيت باردو او ساغان او غراس امبرة موناكو ، فتعطينا الرغبة في ان نفرنقع . وذهبت مرة مع لانزمان الى « تروا بوديه » حيث كان يغني فيان. وكان الممثلون في احد الاسكتشات يفتحون صحفا : هزيمة وحدات العصاة ، انضمام حي او مشتى الى صفوفنا . وكنت اقرأ : ريفيه واورادور ، واحتقر ضحكات القاعة . وفي مساء اخر ، استمعنا الى « غريكو » في « الاولمبيا » . وعلى المسرح روى مستوطن فرنسي في الجزائر قصصا عن « التيوس » ، فشعرب بلزوجة العار تملأ يدي . وفي السينما، كان ينبغي ان نبتلع صور الاحداث التي كانت تتكلم عن جمال الاعمال الفرنسية في الجزائر . وانقطعنا عن الخروج . واصبحت محنة لنا ان نشرب بعد فنجان قهوة في حانة ، وان ندخل مخبزا . وكنا نسمع من يقول : « انسبب هذا كله هو ان الاميركيين طاممون في بترولنا » او نسمع : « ولكن ماذا ينتظرون للاجهاز على المقاومة والانتهاء منها ؟ » وعلى سطائح المقاهي ، كان الزبائن يبسطون جريدتي « لورور » و«باري بريس» وكنت اعرف ما الذي كان يدور في خلدهم : الشيء نفسه المطبوع على الورق . ولم اكن استطيع بعد ان اجلس الى قربهم. كنت قد احببت الجموع : اما الان ، فان الشوارع نفسها اصبحت تكن لي العداء ، وكنت احسني فارغة اليد ، شاني في الايام الاولى من الاحتلال.

بل لقد كان الامر اسوأ من ذلك . لان هؤلاء الناس الذين لم اكن اطيق بعد ان اسير الى جانبهم ،انما كنت اجدني ، عن رضى او عن مضض ، شريكة لهم في الذنب . وهذا ما لم اكن اغفره لهم اكثر من اي شيء اخر . او ربما كان ينبغي لي منذ الطفولة ان اتربى تربية احد افراد الشرطة العسكرية النازية ، او احد افراد المظليين ، بدل ن اتزود بضمير مسيحي ، ديموقراطي ، انساني : ضمير . كنت بحاجة الى احترامي لكي اعيش ، وكنت اراني بعيون نساء انتهكت اعراضهن عشرين مرة ، او رجال حطمت ضلوعهم ، او اولاد اصيبوا بالجنون : امرأة فرنسية .

وكانت اختي وزوجها قد اقاما في باريس . وكان هو اشتراكيا يدافع عن سياسة موليه ، وكان يقول لي : « ولكنهم وضعوا حدا للارهاب في الجزائر » وكنت اعرف ـ بطريقة غير كاملة ، ولكن معرفة كانت كافية لطمأنينتي ـ كم كلف هذا السلام الزائف. وكان يقول لي ايضا : « اما التعذيب ، فليس الا حالات استثنائية » وكان ذلك يدفعني الى غضب كنت احاول ان اكظمه . ولكني كنت احس من خفقات قلبي المتسارعة ، وثقل رقبتي ، وطنين اذني ، ان توتري قد ارتفع .

وكنت اتمنى لو احطم مشاركتي في الذنب مع هذه الحرب، ولكن كيف ذلك ؟ هل اتحدث في الاجتماعات العامة ؟ هل اكتب المقالات ؟ لو فعلت ذلك لقلت ما كان يقوله سارتر ، ولكن بطريقة رديئة . وكان يبدو لي مضحكا ان اصحبه كظله في المظاهرة الصامتة التي اشترك فيها مع مورياك . واليوم ، شتاء ٦١ ، لا يسعني مهما كان وزني خفيفا في الميزان ، الا ان القي فيه بكل ثقلي . ولذلك ، كنت اريد بعد ، قبل ان احاول ذلك ، ان ابذل مجهودا لا يبدو لي من غير جدوى .

كنا نعرف جيدا فرانسيس جانسون : فقد سبق له ان التقى سارتر عام ٤٦ لكي يسلمه مخطوطة « مذهب سارتر الاخلاقي » . وكان في اثناء الحرب قد عبر الحدود الاسبانية لينضم الى مقاتلي فرنسا الحرة : فقبض عليه ووضع في معسكر . واطلق سراحه بعد بضعة اشهر ، وكان الاسر قد هدم صحته ، فاضطر الى الالتحاق باحد المكاتب في الجزائر . وارتبط برباط الصداقة مع بعض المسلمين . وبعد التحرير ، عاد مرات كثيرة الى الجزائر وتابع عن كثب ما كان يجري فيها : وهكذا تمكن من تأليف كتابه : « الجزائر المتمردة على القانون ». وحين اصبح مساعدا في « التان مودرن » ظل مديرا لها اربعة اعوام . وعام ٥٥ ، نشر في دار « سوي » كتاب « سارتر كما يرى نفسه » . وكان قليلون يعرفون فكر سارتر معرفته اياه . وبعد بودابست ، كان قد اخذ على سارتر انه وقف موقفا صلبا اكثر مما ينبغي ، وفي ذلك الحين فترت علاقاتنا . ولكنا عرفنا من البعض انه كان في الجزائر يشارك جبهة التحرير الوطني في نضالها . ولم يكن احد منا ، لا لانزمان ولا سارتر ولا انا ، مستعدا بعد لاقتفاء اثره . لم يكن في الجزائر الا خيار واحد : فاما الفاشية واما جبهة التحرير الوطني . وكنا نفكر ان الامر مختلف في فرنسا . كنا نجد ان اليسار لم يكن لديه دروس يعطيها للجزائريين ، وان « المجاهد » قد احسن صنعا باعادة اليسار الى مكانه . ولكنا كنا نعتقد كذلك ان بالامكان ان نعمل لاستقلالهم بوسائل مشروعة . وكنا نعرف ان جانسون ما كان ليتخذ هذا الالتزام

لو لم قد فكر فيه بنضج ، ولا ريب في انه كانت له وجهة نظره . على اني خشيت . فقد سبق ان التقيت شخصين كانا يعملان معه(١)، وكانا قد صدماني بخفتهما وثرثرتهما . وكنت اتساءل عما اذا لم يكن العمل السري طريقة لتصفية بعض العقد النفسية . اتراه لم يكن لدى الذين اختاروا هذا العمل السري ارادة للانفصال عن المجتمع الفرنسي، ربما كانت مرتبطة بحقد او بلون من الاستياء ؟(٢) كنت تجاه السؤال المعلق الذي يطرحه علي اختيارهم ، ادافع عن نفسي بهذه الشعوذة التي احتقرها ، النزعة البسيكولوجية ، م ن غير ان اتساءل عما اذا لم يكن حذري قد املته علي دوافع ذاتية . انني لم اكن قد فهمت ان جانسون لم يكن ، وهو يساعد جبهة التحرير الوطني ، ينكر انتماءه لفرنسا . وحتى لو كنت قد قدرت عمله تقديرا اوعى واكثر تبعرا ، فانه يظل باقيا ان المرء الذي يشارك فيه ، ينحاز في عيون مجموع البلاد الى معسكر الخيانة : وكان شيء ما في ــ من مثل الخجل والمخلفات ــ يمسكني دون مواجهة ذلك بعد .

**

لم يشف اليسار الفرنسي جيدا من حادثة بودابست . وقد اغتاظ اللاشيوعيون من قسوة العقوبات التي حكم بها الثوار ــ ومنهم تيبور ديري الذي حكم باربع سنوات في السجن ــ في حين كان الحزب الشيوعي ماضيا في تأكيد تضامنه مع كادار . واوقفت جريدة « الايتانسيل » . واصدر فيركور الذي كان صديقا متحمسا للحزب كتابا طريفا اوضح فيه انه قد مل تمثيل دور آنية البورسلين الشرفية ، وانه قد ترك المسرح . وكان جمود البروليتاريا السياسي اخطر من منازعات المثقفين هذه . وفي اخر تشرين الاول ، دعا اتحاد العمل العام واتحاد العما لالمسيحيين الفرنسي الى اضراب ناجح للغاز والكهرباء ، والى اضرابات اخرى انفجرت في سان نازير بعنف شديد حتى ان عاملا قتل ، وجرح الصحفي « غاتي » . واوقف عمال شركة « رينو » العمل، وكذلك اعضاء هيئة التعليم والموظفون . ولكن نشوب هذه الحركات في ابان الازمة الوزارية كان يدل على انها كانت ضد السياسة . فلم تربط الاحزاب ولا النقابات بينها وبين اي صراع ضد حرب الجزائر . على ان اليمين كان يتحرك ، وكان الحديث يجري عن مؤامرات.وانشأت « الاكسبريس » مؤتمرات اقليمية لمكافحة التهديد الفاشي .

وكان « ربع الساعة الاخير » الذي اعلنه لاكوست مستمرا منذ اكثر من عام ، وكانت طرق اعادة السلام هي هي لم تتغير . وكان هناك بعد ذلك ، على حد تعبير « دانيال » احد محرري « الاكسبريس » : « الحصة المألوفة من اعمال التعذيب » ، وكان يشير بذلك امام احد الاصدقاء الى موجز مواد احد اعداد « التان مودرن » . صحيح ان هذا كان رتيبا : الضرب ، والمفطس ، والشنق والحروق وانتهاك الاعراض ، واستعمال الاقماع ، وانتزاع الاظافر ، وكسر العظام : كان ذلك شائعا . ولكننا لم نكن نجد سببا لتغيير الاسطوانة ما دام الجيش والشرطة لا يغيرانها .

وكان جامعي يدعى « اودين » قد اوقف في الجزائر يوم١ حزيران: وسرعان ما انقطعت اخباره . وكان اساتذة ليسيه جول فيري قد طلبوا اجراء تحقيق : ولكن عبثا . وفي مطلع كانون الاول قدم احد اصدقائه، بدلا عنه ، رسالته في الرياضيات بجامعة السوربون : فكانت حفلة تأبينية حضرها عدد كبير من الاساتذة والكتاب .

(١) ملا لبشا ان تركاه .

(٢) اجاب جانسون على هذه الشكوك اجابة ممتازة : « حين باشرنا هذا العمل الذي يؤخذ علينا ، لم نكن محتاجين الى عمل ، وكان كل منا يحب مهنته التي لم يكن فيها فاشلا قط . ولم نكن نستطيع ان نجهل ان فرنسا كانت البلد الوحيد الذي كان لنا حظ أن نحس فيه بالاطمئنان لكي نعيش ونعمل وفق امزجتنا » .

وحتى قراء « الفيفارو » اطلعوا ، مما كتبه مارتان شوفييه(١) ، على حوادث الاعتقال الاعتباطي والاختفاءات والتعذيبات . وفي جريدة « لموند » ظهر بعد بضعة اسابيع من التسويف تقرير « لجنة السلامة » وقد بدأ المقرر بالتصريح : « بان اعمالا يمكن في اوقات اخرى وظروف عادية ان تعتبر تجاوزا وافراطا ، هي في الجزائر مشروعة تماما » اذن، فلم يكن واردا فضحها ، وقد اكتفي بالاشارة الى الوقائع التي كانت تبدو ، في قلب هذه « المشروعية »المفرطة ، فاحشة . وكانت كثيرة وضخمة ، وكانت كافية لاثارة فضيحة . وقد هوجمت « الموند » هجوما عنيفا لنشر التقرير . اما الرأي العام ، فقد تلبث طويلا امام الاحداث.

وفتحت يوم ١٠ كانون الاول محاكمة بن صدوق . وكان لبضعة اشهر خلت ، قد قتل علي شهقال نائب الرئيس السابق للمجلس الجزائري واهم شخصية من المتعاونين المسلمين . وقد استشهد محاميه ، بيار ستيب ، بعدد من المفكرين بينهم سارتر ، كشهود دفاع . وكان سارتر منفعلا حين قصدنا قصر العدل . ان الكلام في المؤتمرات والاجتماعات لا يزن مثل هذا الوزن الثقيل . اما هنا ، فقد كان رأس انسان في الميزان . فلئن انقذه ، فان عفوا عاما بعد بضعة اعوام سيجعل منه رجلا حرا من جديد : وكانت الموازنة بين الموت والحياة اشد تطرفا منها في اية محاكمة عادية . من هنا ، كان ضيق الشهود الذين كان كل منهم يفكر بان شهادته كانت توشك ان تميل نهائيا قرار المحكمين .

ووضع سارتر والشهود الاخرون بمعزل عن المحاكمة . اما انا ، فقد جلست وسط جمهور كبير ، الى قرب المحامين الشبان . وعند قدم المحكمة ، كانت السيدة علي شهقال محجبة بحجاب الحداد ، تمثل الجانب المدني . ونظرت الى الشاب ذي الوجه الصريح الذي كان واقفا في قفص المتهمين : كان قد قام بعمل شبيه بتلك الاعمال التي كانت توصف ، في اثناء المقاومة ، بانها بطولية . ومع ذلك ، فان هناك فرنسيين كانوا على وشك ان يغرموه ربما حياته ، ثمن هذا العمل.

وتكلم اصدقاء لصدوق عن مزاياه كانسان ، وعامل ، وصديق . وبكى اقرباء مسنون له . وبعد ذلك ، راح اساتذة وكتاب وكاهن وجنرال وصحفيون يشرحون عمل صدوق بالوضع الذي كان يعيشه اخوته الجزائريون : ورسموا هذا الوضع . وقال محاميان شابان كانا جالسين الى قربي ، بلهجة انقباض : « انما يحاكموننا نحن : فهم يشرحون لنا ان كل ما يحدث لنا في الجزائر ، فنحن لم نسرقه ! » وكان الاتهام قد استدعى سوستيل . وقد وصل وعلى عينيه نظارتان سوداوان ، وهو يرتدي معطف صناعي كبير . ومن غير ان ينظر الى احد ، مدح الميت . وبعد ذلك ، تقدمت فتاة كانت تمشي ، بمساعدة ذويها ، على ساقين اصطناعيتين : لقد اصيبت بشظايا حادث اغتيال « كازينو الكورنيش »(٢) . فاخذت تصرخ بصوت ثاقب ، متقطع :

ــ كفى فظائع ! انكم لا تعرفون ما نعانيه ! كفى دما ! كفى ! كفى !

وقد احدثت انزعاجا ارتد على الاتهام الذي كان قد اخرج هذا المشهد الميلودرامي ، اكثر مما ارتد على صدوق . وطالب اميل كاهن ، وكان ابيض الشعر هزيلا ، مترنحا ، طالب باسم « جامعة حقوق الانسان » التي كان رئيسها بان يعترف لصدوق بظروف تخفيفية واسعة . وقرأ راع رسالة من اخيه المجند في الجزائر . وكان الشاب المجند يروي كيف رأى وحدة اقليمية ــ اي مستوطنين فرنسيين في الجزائر ــ يعذبون شيخا عربيا . وقد اضطر الى تهديدهم بالسلاح، وساعده بذلك بعض الرفاق ، لينتزع منهم طريدتهم . وقد سقطت هذه الرواية التي تتحدث عن الشنق والضرب والتعذيب في صمت الموت .

ــ التتمة على الصفحة ٧٨ ــ

(١) وكان قد قام بتحقيق باسم « اللجنة العالمية للكفاح ضد حكم معسكرات الاعتقال » .

(٢) الذي حول فيما بعد الى مركز للتعذيب .

يوم كان العار مـلء ايدينا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

لم يكن ثمة تنهيدة اندهاش او اشمئزاز : كان جميع الناس يعرفون . ومرة اخرى ، اصبت بتجلد القلب من هذه الحقيقة : كان جميع الناس يعرفون ولا يبالون ، او يوافقون .

وكان سارتر بين اخر من ادلوا بشهادتهم . ولم يظهر اضطرابه في شيء الا في تسمية القتيل « علي شاقال » ، حين تحدث عنه في احترام متصنع المراعاة . وقارن وضعه بوضع بن صدوق ، فشرح ان الشبان لم يكونوا يستطيعون أن يقروا صبر الذين يكبرونهم في السن ، لانهم لم يكونوا يعرفون من فرنسا الا وجهها الدموي . واشار بعد ذلك الى ان العمل الذي قام به صدوق كان جرماً سياسيا ولا ينبغي ان يشبه بقتل ارهابي . وبذل جهدا كبيرا ليتكلم لغة لا تصدم المحكمة، وقد تعزت هذه باعتداله .

ثم قدم ماسينيون شهادته ، وبعده جيرمين تيون . فلاحظت ان فرنسا قد دفعت الشبيبة الى الحقد . وروت ان مدرسا كان قد طرح على طلابه ، وهم من المسلمين الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، هذا الموضوع للانشاء : « ماذا تفعل لو كنت غير مرئي ؟ » ، وقرأت جيرمين بعض المسابقات : لقد اجاب الجميع ، عبر الوان من الاختلاقات الخيالية ، بما معناه : « لو كنت غير مرئي لقتلت جميع الفرنسيين .»

وغادرت القاعة . وفي الممرات كان الجنرال « توبير » يبرق ويرعد ضد فرنسيي الجزائر . وكان جميع الشهود يمتدحون تجرد الرئيس والحرية التي كان قد منحهم اياها . وكانوا يعلقون في قسوة على غياب كامو . وقد كان لصوته وزن ثقيل ، لو كان قد قبل الحضور ، لا سيما وانه كان قد نال جائزة نوبل . وكان ستيب قد طلب منه فحسب ان يقول بصوت مرتفع ما كان قد كتبه في دراسة حديثة بشجب حكم الاعدام : ولكنه رفض ان يمثل امام المحكمة ، بل رفض ان يرسل رسالة الى المحكمة . وكان بعض الشهود ، التماسا لرحمة المحكمة ، قد ذكروه ، واحيانا بلهجة لا تخلو من الخبث .

تناولت العشاء في « لا باليت » مع سارتر ولانزمان . ترى ، هل ينقذ رأس صدوق ؟ لقد كنا قلقين . وشرب سارتر الويسكي ليخفف التوتر الذي خضع له طوال النهار : وكان لا يستطيع احتمال الويسكي منذ فترة من الزمن ، فتفاقم انفعاله . وما لبث أن سقط في شراسة غاضبة :

ـ من كان يظن اني سامتدح شهقال ؟ واني سأتحدث ضد الارهاب: كما لو انني كنت اشجب الارهاب ! وكل ذلك لكي أروق « لبوجادييي » المحكمة ! أتتصورون ذلك ؟

وكان الحزن الحانق والغضب يصعدان الدمع الى عينيه ، وكان يـردد :

ـ كل ذلك من اجل البوجاديين !

وقد ذعرت من عنف تأثره وانفعاله : انه لا يعني فقط الاشمئزاز من التنازلات التي وافق عليها ، فقد كانت اعصابه منذ اسابيع واشهر، ثائرة .

وصباح اليوم التالي اغمتنا قراءة الصحف . صحيح انها كانت وهي تورد الشهادات تنصب على غير ارادة منها مطالعة ممتازة ضد الحرب : وهكذا سيعلم الجمهور الحقائق ، بطريقة غير مأمولة .ولكنها كانت منحازة بصورة عنيفة ضد صدوق . وقد عنونت احداها مقالها بعبارة : « ما اجمله شابا ، قاتل شهقال ! » وكانت الصحافة تتهم الشهود بانهم « وسخوا » فرنسا ، وكان يبدو أن سكين المقصلة وحدها هي التي تستطيع محو هذا العار . وكنا نخشى ان تتأثر المحكمة بهذه المقالات .

وبعزاء كبير عرفنا الحكم في المساء . سجن مؤبد : ولكن السجون ستفتح بعد الحرب . وكنا سعداء من أجل صدوق اولا . ولكن كان يرفع معنوياتنا كذلك أن نرى ان في فرنسا بعد بعض الرجال القادرين على أن يحكموا وفق ضمائرهم ، تجاه انسان جزائري .

اما في الجزائر ، فان هذه الفكرة لم تكن سارية بعد . كانت اكباش الفداء تختار بالاتفاق : وقد اعترف ستة من المسلمين ، تحت الوان من التعذيب ، باشتراكهم في قتل « فورجيه » ، فاختير منهم واحد، وبالرغم من انه لم يقم أي دليل ضده هو بالذات: فان «كوني»(١) رفض ان يعفو عنه .

حوالي نهاية كانون الثاني ١٩٥٨ ، طلب مني السيد «بروغييه» شهادة حسن اخلاق لصالح جاكلين غروج التي كانت في روان واحدة من افضل طالباتي . وقد عينت معلمة في الجزائر فتزوجت معلما مسلما، وكانت مثله عضوا في الفرق المدنية لجيش التحرير الوطني . وكانت قد أعادت الى « ايفوتون » القنبلة التي كان قد وضعها في احد المراكز . وقد حكم عليهما كليهما ، كما حكم على متهم مشترك معهما ، بالموت في كانون الاول ١٩٥٧ . وشن اليسار حملة لصالحهم،فشاركت فيها ، الى ان حصلنا على العفو عنهما . اما طالب المقتنع فقط بانه قد هيأ متفجرات وكان ينكر كل مشاركة بهذا العمل ، فقد نفذ فيه حكم الاعدام .

وحزن قسم كبير من اليمين الفرنسي لحادثة قصف قرية «ساقية»: فقد كانت حوادث كحادثة « اورادور » تركب كل يوم على حد قول كابورال في الجيش . اما ضرب قرية تونسية ، فتلك غلطة فاحشة . وارادت الانباء الرسمية ان تبرر هذا القصف ، فعرضت في الاحداث المصورة بدور السينما شريطا كان يظهر جنودا من جيش التحرير الوطني معسكرين في تونس : وكانت تلك غلطة اخرى ، فقد كانوا بلباسهم الرسمي وتنظيمهم يشكلون جيشا لا جمعية من المشاغبين الاشرار .

وكانوا يروون أن الجنرال « ماسو » ، صاحب الروح التقية الموسوسة ، اراد آن يتذوق التعذيب ، وانه قد صرح : « انه قاس جدا ، ولكن يستطيع رجل شجاع ان يتحمله » . وصدر كتاب يكتشف حقيقة التعذيب التي لا تحتمل ، هو كتاب « الاستجواب » (٢) لهنري اليغ . وعلق عليه سارتر في مقال بعنوان « انتصار » نشرته مجلة « الاكسبريس » وحذفت المراقبة بعض مقاطعه. ومع ذلك ، فقد بيع الكتاب بعشرات الالوف من النسخ ، وترجم في العالم كله .

لقد كان التعذيب الان واقعة ثابتة حتى ان الكنيسة نفسها اضطرت الى اصدار حكمها عن شرعيته . وكان كثير من الكهنة يرفضونه، بالكلام وبالعمل ، بينما كان كهنة اخرون يشجعون « هيئات النخبة » في التعذيب . واما المطارنة ، فقد كان معظمهم ينهبون بعيدا في التساهل ، ولم يكن احد يجازف في الانتقاد والتوبيخ . وكم كان بين المدنيين من صمت موافق ! وكان صمت كامو يثيرني . انه لم يكن يستطيع ان يتحجج ، كما تحجج في اثناء حرب الهند الصينية ، بانه لم يكن يريد ان يلعب لعبة الشيوعيين . فكان يتمتم بان المتروبول لم يكن يفهم المشكلة . وحين آتى الى ستوكهلم ليتلقى جائزة نوبل ، كشف عن نفسه أكثر فاكثر . وكان يمتدح حرية الصحافة الفرنسية : وفي ذلك الاسبوع ، صودرت « الاكسبريس » و « الاوبسرفاتور » و « فرانس ـ نوفيل » .وصرح امام جمهور كبير : « أنني احب العدالة، ولكني سادافع عن أمي قبل العدالة وهذا يعني انه ينحاز الى صف المستوطنين الفرنسيين . وقد كانت المزايدة تكمن في انه كان يتصنع في الوقت نفسه انه قائم فوق المعركة ، مانحا بذلك كفالة لمن كانوا يتمنون التوفيق بين هذه الحرب وطرقها وبين النزعة الانسانية البورجوازية . ذلك ان بلادنا ، كما قال الشيخ روجيه ، بعد ذلك

---

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية (هـ.م) .

(٢) وقد صدر مترجما بالعربية عن دار الاداب بعنوان «الجلادون» (هـ.م).

بسنة ، من غير ان يضحك « تحتاج الى ان تلون جميع اعمالها بمثل اعلى من العالمية والانسانية » . وبالفعل ، فقد كان مواطني يتدبرون الامر ليحافظوا على هذا المثل الاعلى فيما هم يركلونه باقدامهم . وقد كان جمهور حساس يبكي كل مساء ، في مسرح مونبارناس ، على المصائب القديمة التي اصيبت بها « آن فرانك » الصغيرة . اما جميع اولئك الاطفال الذين كانوا يحتضرون ويموتون ويجنون فوق ارض يقال انها فرنسية ، فان هذا الجمهور لم يكن يريد ان يعرف من امرهم شيئا. واذا حاولت ان تعطفهم عليهم ، اتهموك باشاعة معنويات الامة .

ولم اكن لاحتمل بعد هذا النفاق ، وهذه اللامبالاة ، وهذه البلادة وجلدي الخاص . ان هؤلاء الاشخاص الذين يسيرون في الشارع، موافقين او شاردين ، انما كانوا جلادين للغرب : كانوا كلهم مذنبين ، وانا كذلك. « انني فرنسية » لقد كانت هذه العبارة تجرح حلقي كما لو انها اعتراف بعاهة . كنت في نظر ملايين من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال ، اختا للمعذبين ، للمحرقين ، للذابحين ، للمجوعين . وكنت استحق حقدهم ، لانني كنت استطيع ان انام واكتب واتمتع بنزهة او بكتاب : واللحظات الوحيدة التي لم اكن استشعر فيها الخجل ، هي تلك التي لم اكن استطيع فيها ان اكون كذلك ، تلك التي يؤثر فيها المرء ان يكون اعمى على أن يقرأ ما يقرأ ، وان يكون اصم على ان يسمع ما يروى له ، وان يموت على ان يعرف ما يعرف . كان يخيل الي انني احمل مرضا من تلك الامراض التي يكمن اخطر عوارضها في عدم الاحساس بالالم .

وكان بعض المظليين يقيمون احيانا ، على رصيف سان جيرمين دي بريه نوعا من الكشك . وكنت اتجنب دائما الاقتراب ، ولم اعرض قط ما كانوا يصنعون : لقد كانوا على اي حال يقومون بالدعاية لانفسهم . وكنت من وراء طاولتي اسمعهم يعزفون الحانا عسكرية . وكانوا يتناقشون ، واعتقد انهم كانوا يقدمون صورا مختارة عن حملاتهم . وكنت استشعر هذه الكرة في حلقي ، هذا الاشمئزاز العاجز الغاضب: ذلك ما كنت احسه حين كنت ارى الشرطة العسكرية النازية . وكانت الملابس العسكرية الفرنسية تحدث لدي الرعشة نفسها التي كانت تحدثها في الماضي الصلبان المعقوفة . وكنت انظر الى اولئك الفتية في الثوب الكاكي الذين كانوا يروحون ويجيئون مبتسمين ، ووجوههم برونزية وايديهم فارغة : تلك الايدي ... وكان اناس يقتربون، مهتمين، فضوليين ، ودين . اجل ، كنت اسكن مدينة محتلة ، وكنت احتقر المحتلين في ضيق اشد من ضيق سنوات ١٩٤٠ ، بسبب جميع الروابط التي كانت تشدني اليهم .

وكان سارتر يتعزى من الوضع بالانقضاض على « نقد العقل الديالكتي » يكتبه بسعر وغضب . ولم يكن يعمل على مألوف عادته باللجوء الى بعض الراحة والتوقف والشطب وتمزيق صفحات وكتابة سواها . كان طوال ساعات متتابعة ينتقل من ورقة الى ورقة من غير ان يقرأ ما كتب ، كما لو انه كان مشروقا بالافكار التي لم يكن قلمه ، حتى ولو جرى ركضا ، يتمكن من القبض عليها . ولكي يبقى على هذا الاندفاع ، كنت اسمعه يقرض حبوب الكوريدرام التي كان يبتلع منها انبوبا كل يوم . حتى اذا اشرف النهار على نهايته ، كان مرهقا نافد القوى . واذ ذاك كان يأتي حركات غير واثقة ، بعد ان يكون تنبهه قد تراخى ، ويقول غالبا كلمة بدلا من اخرى . وكنا نقضي امسياتنا في شقتي ، وكان الكحول يستخف برأسه لمجرد شرب كأس واحدة ، فكنت اقول له : « هذا يكفي » . ولكن ذلك لم يكن يكفيه ، فكنت اقدم له كأسا اخرى ، على مضض . وكان يطلب ثالثة . وقد كان منذ عامين محتاجا الى اكثر من ذلك . ولكن مشيته وكلامه الان كانا يرتبطان بسرعة، وكنت اردد « هذا يكفي » . وقد تولاني غضب عنيف مرتين او ثلاثا ، وارسلت يوما بالكأس تتحطم على بلاط المطبخ . ولكن كان يرهقني ان اتخاصم معه . ثم اني كنت اعلم انه كان بحاجة الى راحة الاعصاب ، اي الى ان يهدم نفسه قليلا ، ولم اكن احتج عادة الا عند الكأس الرابعة . فاذا تركني وهو يترنح ، كنت اواخذ نفسي على مسلكي . وكانت تنتابني الوان من القلق الحاد الشبيه بالذي عانيته في حزيران ١٩٥٤ .

كنت اؤمل ان يحمل لي الثلج بعض المرح . ولكن الاسبوعين اللذين قضيتهما في « كورشوفيل » قد خيباني . وكنت احسبني استعيد شبابي ، حين انتعلت لعامين انقضيا آلة التزلج : كان عمري يتحدد باني لم اكن اتقدم . وكان لانزمان نادرا ما يصحبني على حلبات التزلج: كان يكتب لمجلة « التان مودرن » مقالا عن خوري « اورف » . وكانت مدهشة قصة ذلك الكاهن وهو يقتل المرأة التي جعلها تحمل منه ، ثم بقر بطنها ليعمد الجنين ، ودق الجرس فاضحا الجريمة ، ومساعدا ابناء رعيته على البحث عن القاتل . وقد كانت المحاكمة اشد من ذلك ادهاشا ، وقد استخرج لانزمان مغزاها بخبث وصرامة : « ان وجهة نظر الكنيسة » كانت تطلب رفض فهم الخوري ورفض معاقبته في وقت واحد » . كان الكاهن قد انقذ رأسه ، في حين ان قاتلي سان كلود ـ اللذين لم يكونا اقل جدارة بالرحمة ، باعتبار انهما صبيان نصف متأخرين ، وقد قضيا طفولتهما في الميتام ـ قد حكما بالاعدام(١) .وكان نزلاء الفندق يجدون من الطبيعي جدا اعدامهما : ولم اكن استطيع ان اتجنب الاصغاء ، اثناء وجبات الطعام ، الى ما كانوا يقولون . من اجل هذا خاصة كان مكوثي ذاك غير سعيد : فكأنما كنا قد بقينا في فرنسا . لقد كنت غارقة في هذه البورجوازية كلها التي كنت افر منها في باريس . صحيح ان الرجل والزوجة اللذين كانا يشكوان من انه ليس من حق البلجيكيين في الكونغو ان يقتلوا الزنوج بعد ـ كانا بلجيكيين، ولكن الفرنسيين الموجودين كانوا يفهمون حسرتهما . وحين اردت في نيسان أن اسافر بضعة ايام بصحبة لانزمان ، اخترنا انكلترا : الشاطىء الجنوبي ، الكورنواي . وكان الفرنسيون الوحيدون الذين يوحون لي جماعيا بالود ، هم من الشبان . وقد طلب مني طلاب يساريون ان القي في السوربون محاضرة عن الرواية ، فقبلت : لقد كنت اعيش منسحبة من الحياة العامة الى حد اني ، حين دخلت قاعة المحاضرات ، لاحظت من استقبال الجمهور لي ، اني لم اكن مجهولة لديه . ودفأت صداقته قلبي : وكان بحاجة لها .

(١) وقد عفي عن احدهما .

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

صدقي اسماعيل	العصاة
ميشال غريب	الطائفية والاقطاعية في لبنان
اميل خوري حرب	التراث الانساني العظيم
نجيب مخول	الغزالي وابن رشد
بيار دي سان سير	اكتشاف الحياة
بولس سلامه	عيد الستين
جميل جبر	لبنان في روائع اقلامه